سُؤَالُ الإِعْجَازِ القُرْآنِيّ فِي التّفْسِيرِ البَيَانِي
لعَائِشَةَ عبْدُ الرَّحْمَن "بنت الشاطئ"

The Question of Qur'anic Miracles in Exegetical Interpretation by Aisha Abd Al-Rahman (Bint Al-Shati)

أ. **فاطمة رابح:** طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

د. عبد اللطيف عادل: أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة القاضي عياض، مراكش، كلية اللغة العربية، مراكش.

Ms. Fatma Rabeh: A PhD Student, Faculty of Arabic Language, Al-Qadi Ayyad University, Morocco.

Dr. Abdullatif Adel: Professor of Rhetoric and Discourse Analysis, Faculty of Arabic Language, Al-Qadi Ayyad University, Morocco.

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i2.1349

تاريخ الاستلام:	2024-11-25	تاريخ القبول:	2025-01-01	تاريخ النشر	2025-02-01

الملخص:

ظل القرآن الكريم حافزاً لنشأة علوم اللغة العربية المختلفة، وأساساً لتطورها، ولذلك صارت هذه العلوم عند اللاحقين أصلاً لا محيد عنه لكل باحث يتوخى فهم القرآن الكريم وكشف وجوه إعجازه. وتحاول هذه الورقة أن تقف على أسس التفسير البياني عند عائشة عبد الرحمن، بوصفه مكوناً أصيلا في منهجها الاستقرائي في فهم القرآن الكريم. فعلى الرغم من أن المنهج البياني قد اكتمل نضجه وبلغ غايته مع كشاف الزمخشري، إلا أن المفسرة أبرزت في جهدها جوانب الجدية فيه، من خلال إحيائها لأصول التفاسير البيانية السابقة أخذاً وردّاً ونقداً، واقتفائها أثر أستاذها المجدد أمين الخولي، ومنهجه الأدبي في تفسير القرآن الكريم. وقد خلص البحث إلى كون المفسرة صرفت كل همها في فهم القرآن بالقرآن عن طريق استقراء اللفظة القرآنية، وتتبع دلالاتها اللغوية، وسياقات ورودها في النص ككل، من أجل النفاذ لدقائقها والوقوف على أسرار معانيها.

الكلمات المفتاحية: اللفظة القرآنية، التفسير البياني، الإعجاز البياني، عائشة عبد الرحمن.

Abstract:

The Holy Qur'an has been a catalyst for the emergence of the various sciences of the Arabic language, and a basis for its development, and for this reason, these sciences became, for those who followed, an indispensable asset for every researcher who seeks to understand the Holy Qur'an and reveal its miraculous aspects. This study attempts to stand on the foundations of the rhetorical interpretation of Aisha Abdel Rahman, as an original component of her inductive method to understanding the Holy Qur'an. Although the rhetorical approach has completed its maturity and reached its goal with the Zamakhshari Scouts, the interpreter highlights in her efforts the aspects of novelty in it, by reviving the principles of the previous rhetorical interpretations by taking and criticizing, and tracing them in the footsteps of her revamped teacher Amin Al-Khouli. And his literary approach in the interpretation of the Holy Quran. Therefore, she spent all her concern in understanding the Qur'an with the Qur'an through extrapolating the Qur'anic word, and tracing its linguistic connotations and the contexts of its occurrence in the text as a whole, in order to penetrate into its subtleties and discover the secrets of its meanings.

Keywords: Aisha Abd al-Rahman, Rhetorical inimitability, Rhetorical interpretation, Quranic word.

المقدمة:

لم يلق نص من العناية والاهتمام مثلما لقيه كتاب الله تعالى، فقد حظي بتراث وافر، ودارت عليه علوم كثيرة، وأفردت له مؤلفات شتى، اجتهدت في بيان معناه وفي تبيين مقاصده. والقرآن الكريم هو كلام الله المعجز الذي تحدى قوماً كانت صنعتهم الكلام وديوانهم الشعر، بل لم يكن لهم "علم أصح منه"، أقاموا له الأسواق، وفاخروا به الأمم، وعقدوا له المجالس، ومع ذلك تم تحديهم "بما كانوا لا يشكُّون أنهم يقدرون على أكثر منه[1]" فدعاهم أن يأتوا بمثله بعشر سور مفتريات تضاهي لغة القرآن، وتحاكي سحر بيانه. ولما بان عجزهم جاء التحدي في أدنى مستوياته، وهو الإتيان بسورة من مثله، ومع ذلك أقروا بالعجز لأن "البيان في أنفسهم أجلّ من أن يخونوا الأمانة فيه أو يجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه"[2]، فضلاً عن أنهم "كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم"[3]، لكن لمّا تم القطع بعجزهم بإطلاق، ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾[البقرة: 24]، لم يستسيغوا سحر اللغة منثوراً فألصقوا بنبي الأمة تهمة ساحر وشاعر.

فاشتغلت عقول كثيرة على رد هذه المطاعن دفاعاً عن حجة النبوة، وصدًّا لمزاعم المشككين في الرسالة، بدءاً من جهود التيار المعتزلي، ثم تلت ذلك جهود أخرى بحثت في الوجوه التي صار بها القرآن الكريم معجزاً، فمنها من قال بالصرفة، ومنها من أرجأ ذلك إلى إخباره عن الغيبيات ومنها من أضاف إلى ذلك كله بلاغته العليا وبيانه العالي.

واضح إذن أن مبحث الإعجاز تأثر أول الأمر بمناهج المتكلمين، معتزلة وأشاعرة، وبين أقطابهم دارت الصراعات الفكرية والخصومات الكلامية، حيث راح أهل كل فرقة يلتمسون من أئمتهم وضع تفاسير تؤيد منهجهم وتزكي رأيهم، وتبرز فكرهم على غيرهم، حتى حمّلوا معاني القرآن محامل عديدة لوت أعناق النص القرآني ليّاً. وظل الاختلاف المذهبي مؤشراً قوياً في الحدث الإعجازي، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني (471هـ) ورسم له مسالك جديدة عبر مدخلي الشعر والنحو، في وقت مهد فيه الفكر المعتزلي للكثير من الأسئلة حول مبحث الإعجاز. وفي ذلك يقول الحسين أطبيب عن المعتزلة: "من الإنصاف القول بأنها الفرقة التي ساهمت أكثر من غيرها في إبراز خصوصية البيان العربي، وتحليل أساليبه في التعبير، وضبط مستنداته في التفكير"[4].

---

[1] – الجاحظ، أبو عثمان، رسائل الجاحظ، حجج النبوة، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ج 279/3.

[2] – شاكر، محمود محمد (1987): من تقديم الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، فصل في إعجاز القرآن، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، سوريا: دار الفكر المعاصر، سلسلات الحضارة، ط4، ص32.

[3] المرجع السابق، ص48.

[4] – أطبيب، الحسين (2010): نظرية النظم في أصولها الكلامية، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، ط1، ص56.

لكن في وقت كثر فيه التأليف في الحواشي والمختصرات والشروح، وضعف الاهتمام باللغة العربية، وخبت فيه حرارة الإحساس بالبيان، تعالت الدعوات إلى قراءات وتفاسير جديدة للقرآن الكريم، منها من يدعو إلى ذلك عن حسن نية، غاية قصده تعميق النظر وإمعان التدبر في كلام الله، ومنها من يسعى إلى تحقيق استمرارية حفظ الوحي لكل زمان ومكان، وهناك أيضاً من طلب ذلك لمآرب أخرى.

وقد برزت أسماء عديدة دعت إلى التجديد في علم التفسير، أبرزها الأديبة عائشة عبد الرحمن(ت1998م) التي لم تتوان في خدمة الكتاب المبين واللغة التي نزل بها، من خلال جهدها التفسيري للقرآن الكريم، مستمدة أصول المنهج من شيخها أمين الخولي (ت1966م)، صاحب المقولة الشهيرة "أول التجديد قتل القديم فهماً"[1].

وتبعاً لذلك، يُعْنى هذا البحث بإبراز جهود بنت الشاطئ في تفسير كتاب الله تعالى، كما يعرض إلى إفادتها من الأعمال السابقة أخذاً وردّاً ونقداً وإضافةً، باسطة ضوابط منهجها البياني، المؤسس على قضايا اللغة والبيان وأسرار جمال التعبير في كشف وجوه الإعجاز القرآني. فما مكانة بنت الشاطئ المفسرة؟ وما مكان إسهامها التفسيري بين جهود العلماء؟ وما هي خصائص ومميزات منهجها البياني؟ وما هي الإضافات التي قدمتها في علم التفسير؟

أوّلاً: عائشَة عبد الرَّحمن: ثَقَافَتُها، مَصَادِرُها العِلْمِيّة

1- عائشة عبد الرّحمن: سيرتها العلمية وثقافتها:

تعد عائشة عبد الرحمن من النساء الرائدات في عالم الكتابة والتأليف، حيث كانت امتداداً ثقافيّاً لرياح الحركة النسائية المصرية التي هبت أواخر القرن التاسع عشر، مثل عائشة تيمور(1902م) وملك حفني ناصف (1918م) وهدى شعراوي (1947م) وغيرهن. ولئن كان اهتمام هؤلاء الكاتبات بالعلوم الدينية جزئيّاً، من خلال طرح بعض القضايا التي تتصل بقضية المرأة، مع الإيغال في الحديث عن الهيمنة الذكورية، فإن عائشة عبد الرّحمن أحدثت نوعاً من التحول في الدفاع عن التراث والهوية الإسلامية، كما خاضت معارك فكرية لمناهضة النسق السائد الذي كان ضد امتلاك المرأة لسلطة المعرفة. ولقد وعت مبكراً بأن المرأة لم تخلق للرجل، ولكن سنة الخلق أن يوجدا معاً. ولذلك صرفت كل همها إلى نقد وتعرية واقع استطاب تهميش المرأة وتغييب صوتها، بل وحرمها من الحقوق التي تجعل منها ذاتاً فاعلة في محيطها ومجتمعها، وهي سيرة لوحدها أخرجتها الأديبة بنت الشاطئ في كتاب، وترجمتها إلى نصوص ومقالات صحفية.

[1] – الخولي، أمين (1961): مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، ص203.

ومن هنا، ليس غريباً أن تدافع بقوة عن تعليم المرأة، باعتباره دعامة قوية من دعامات وجودها، وسبباً من أسباب نهوضها. إذ لا معنى لوجود المرأة خارج أسوار المدرسة وردهات الجامعة فيما ترى بنت الشاطئ، وأنه متى انتفت ظروف تعليمها وجب عليها أن تصنعها صنعاً، فكان أن اتخذت من المنابر الصحفية في بداياتها أداة للتعريف بمتطلبات الفتاة المصرية والإخبار بمشاكلها وهمومها.

لقد تهيأت لبنت الشاطئ سبل الريادة منذ البداية، لأنها نشأت في بيت علم ودين، وتعلمت من صفوة مشايخ الأزهر، مثلما أخذت العلم على يد خيرة أساتذة الجامعة المصرية أمثال طه حسين وأمين الخولي. ومن ثم انكبت على روافد التراث العربي تحقيقاً وبحثاً، بدءاً بتراث المعري الذي كان له أثر واضح في نبوغها المبكر، حتى قال عنها المحقق محمود الطناحي: "إن بنت الشاطئ خاضت لجة هذا البحر، وهي مؤمنة بقضية كبرى، هي قضية ذلك التراث العربي، وواجبنا نحو إبرازه وكشفه وإضاءته، لتقوم عليه الدراسات الصحيحة، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرر"[1].

ولما فرغت من كل ذلك انهمر عطاؤها، وولجت عوالم النشر والتأليف، بثقافة واسعة، ضاربة بسهامها في كل العلوم تأليفاً وتدريساً، ومساهمِة في إغناء المكتبة العربية بإرث علمي توزع بين الأدب والتحقيق والتفسير، فضلاً عن كونها من التلاميذ النجباء لمدرسة الأمناء التي تزعمها زوجها أمين الخولي.

2- عائشة عبد الرّحمن مفسرة للقرآن الكريم:

بعد هذه الرحلة الطويلة في طريق العلم، ولجت الأديبة بنت الشاطئ عالم التفسير، وكلها تهيب من علم يؤلف فيه الرجال، وإليهم تنسب مصنفاته، وبأسمائهم تعنون "ولولا ما أعلم من مكانة جليلة للمرأة المسلمة في تاريخنا، لأحجمت عن التقدم إلى هذا الميدان الجليل، إشفاقاً من أن ينكر مكاني فيه"[2].

وقد خاضت هذه التجربة باقتدار ومكنة، شكلت فيها ثقافتها اللغوية والبلاغية والدينية سلاحها الأقوى، من خلال تأليفها لكتاب (التفسير البياني للقرآن الكريم) وكتاب (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية).

فالأول، يقع في جزأين، ظهرت طبعته الأولى سنة1962، ثم ظهر بعد ذلك الجزء الثاني سنة 1986م. ولقد أشارت المؤلفة إلى دواعي تأليف هذا الكتاب بقولها: "ليس إلا محاولة في هذا التفسير

[1] – الطناحي، محمود، مقالة تحت عنوان "بنت الشاطئ وتحقيق التراث"، مجلة العربي، الرابط على الشبكة 8315=http://www.3rbi.info/Article.asp?ID

[2] –عبد الرحمن، عائشة (1971): الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ط3، القاهرة، مصر: دار المعارف، ص11.

البياني للمعجزة الخالدة، حرصت فيها ما استطعت على أن أخلص لفهم النص القرآني فهماً مستشفاً روح العربية ومزاجها، مستأنسة في كل لفظ، بل في كل حركة ونبرة، بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتجر الخلاف، على هدي التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه، والتدبر الواعي لدلالة سياقه، والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في البيان المعجز"[1].

على أن اعتزاز بنت الشاطئ بهويتها الإسلامية، ظل مقروناً بالدفاع عن الهوية اللغوية العربية؛ لذلك فإن أول ما يسترعي انتباهنا في هذا النص، هو ولع بنت الشاطئ بالقرآن الكريم، وهو ولع نابع من مصاحبتها لكتاب الله منذ الصغر، ومن إيمانها الراسخ بأن قوة العرب في لسانهم، وأن خلود اللغة العربية مكفول بكتاب الله تعالى. ومن هنا كان همها إبراز أسراره البيانية المُعْجزة عبر دراسة منهجية تروم تجنب "شطط التأول في كثير من كتب التفسير واللغة والبلاغة، أو من بعد التكلف واعتساف الملفظ، وتحميل ألفاظ القرآن وعباراته ما يأباه القرآن نفسه حين نحتكم إليه"[2].

أما كتابها الثاني "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية بيانية"، فقد تناولته في قسمين، القسم الأول حول الإعجاز البياني، والقسم الثاني يعالج مسائل ابن الأزرق. وقد تضمن الكتاب مدخلاً وثلاثة مباحث وخاتمة، وهو دراسة لغوية بيانية. وقد ذكرت في مقدمته السبب الباعث على التأليف: "وقد شغلتني قضية الإعجاز البياني دون أن أتجه إليه قصداً، فأثناء انشغالي بالتفسير البياني والدراسات القرآنية، تجلى لي من أسراره الباهرة ما لفتني إلى موقف العرب من المعجزة القرآنية في عصر المبعث، ووجهني إلى محاولة منهجية في فهم عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله"[3]، فعرضت في تفسيرها إلى الأسرار البيانية للحرف القرآني ودلالة اللفظ وأسرار التعبير.

ولما جاء الحديث عن دور المفسر، حددت بنت الشاطئ الإطار الذي ينبغي أن يحكم علاقة المفسر بالقرآن الكريم، مفرقة بين عملية الفهم ومدارات التأويل، التي لا يقترب منها إلا أصحاب الاختصاص من أهل العلم والدراية به، وأكدت على ذلك من خلال قولها: "يبدو أننا في حاجة إلى أن نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام، بين حق كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه وبين حرمة تفسيره للناس لا نبيحه لغير ذوي الدراية به"[4].

فإذا كان حفظ القرآن الكريم والعناية به تأتي قبل تعلم علوم اللسان العربي، فإن المفسر لا يرتقي في درجات هذا العلم إلا بتمكنه من هذه العلوم وتشربه منها، وامتلاكه لنواصيها، لأنها المفاتيح المعينة على كشف أسرار كلام الله، وإدراك لطائفه البلاغية، وكشف نكته البيانية، وهو ما يثري هذه

[1] – عبد الرحمن، عائشة التفسير البياني للقرآن الكريم، القاهرة، مصر: دار المعارف، ط7، ج1، ص17.
[2] – المرجع السابق، ج1، ص18.
[3] –عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص11.
[4] – عبد الرحمن، عائشة (د.ت): القرآن والتفسير العصري (هذا بلاغ للناس)، ط3، القاهرة: دار المعارف، ص46.

العلوم فيما يرى صاحب المنهج: "فأنت ترى عن جلاء أن التفسير، على هذا التلوين، ينتشر بالعلوم والمعارف التي يلقى بها المفسر النص، ويستعين بها في استجلاء معانيه، كما أن وصل هذه العلوم بالتفسير، يكسب هاتيك العلوم نفسها، ضرباً من الثروة، يقدر أثره في تاريخها"[1].

ويلتقي مضمون هذا القول بما أورده الزمخشري في كشافه من إعلاء لشأن البلاغة، وعلو منزلتها في كشف حقائق التفسير، حيث يقول: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني وعلم البيان"[2].

ولم يكن تفسير بنت الشاطئ تفسيراً شاملاً للقرآن، بل اقتصرت فيه على بعض السور القصيرة والمتوسطة، حيث إن الجزء الأول من كتاب التفسير البياني اقتصر على (سورة الضحى، سورة الشرح، سورة الزلزلة، سورة العاديات، سورة النازعات، سورة البلد، سورة التكاثر)، أما الجزء الثاني فعنيت فيه بتفسير (سورة العلق، سورة القلم، سورة العصر، سورة الليل، سورة الفجر، سورة الهمزة، سورة الماعون).

ويبدو أن اختيارها لتفسير قصار السور كان اختياراً مدروساً، يتناسب مع وحدة الموضوع التي تحكم هذه السور، وهو ما يجعلها تضع اليد على مظاهر التماسك والاتساق والانسجام بين أجزاء القرآن الكريم. كما أن مقصدها الأسمى من ذلك بيان المعجزة الربانية وصد الجاحدين والمشككين وتحديهم في هذه السور المكية. ويتأكد ذلك من خلال قولها: "وأتجه بمحاولتي اليوم إلى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع وأكثرها من السور المكية ،حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية"[3].

3- مصادرها العلميّة:

إذا كان لابد من الوقوف على المصادر التي اعتمدتها بنت الشاطئ في تفسيرها لكتاب الله تعالى، فإن أهمية ذلك تظهر من خلال تواصلها مع الجهود العلمية السابقة "وهذا هو مجال المحاولة التي أقدمها اليوم في فهم إعجاز القرآن البياني لا أجحد بها جهود السلف الصالح في خدمة كتاب الإسلام تفسيراً وإعراباً وبلاغة، وقد زودتني بمعالم هادية على الطريق الذي سرت فيه من حيث انتهت جهودهم"[4] .فقد عرضت لآرائهم، واستشهدت بأقوالهم، وبسطت مواقفهم، واحتفلت بها في مواضع كثيرة، مثلما ردتها ردّاً في مواطن أخرى، وعقبت عليها بعد تقديم تعليلها في كل قضية من

[1] – الخولي، أمين، مناهج تجديد، مرجع سابق، ص 300.

[2] – الزمخشري، جار الله (2009): تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، بيروت: دار المعرفة، ص23.

[3] – عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن، مرجع سابق، ج1، ص18.

[4] – عبد الرحمن، الإعجاز البياني، مرجع سابق، ص12.

القضايا. ونذكر من بين كتب التفسير "جامع البيان " لابن جرير الطبري (ت310هـ)، و"الكشاف" للزمخشري (ت538هـ)، و"مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي (ت606هـ)، وتفسير "جزء عم" للإمام محمد عبده (ت1950 م)، و"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين البقاعي (ت885هـ)، وفي علوم القرآن نجد تفسير الجلالين للسيوطي، و"التبيان في أقسام القرآن" لابن قيم الجوزية (ت751هـ)، بالإضافة إلى معاجم اللغة والنحو، ويأتي في مقدمتها كتاب "المفردات" للراغب الأصفهاني (ت502هـ)، و"معاني القرآن" للفراء (ت207هـ)، و"أساس البلاغة" للزمخشري، بالإضافة إلى باقي البحوث الإعجازية وغيرها.

ويعد أستاذها أمين الخولي، الذي وضع قواعد نظرية التفسير الأدبي، من أهم مصادرها التفسيرية، وإليه نسبت كل الفضل فيما وصلت إليه. كما أنها تعتبر منهجه أهم جهد تجديدي بذل في العصر الحديث، لأنه جمع صياغة توفيقية بين الجديد والقديم. كما أولى عناية فائقة لإبراز الخصائص الأسلوبية والبيانية للقرآن، باعتباره نصّاً أدبيّاً، وبوصفه كتاب العربية الأكبر، حيث يقول: "وذلك المقصد الأسبق والغرض الأبعد هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الأعظم، فهو الكتاب الذي أخلد العربية وحمى كيانها، وخلد معها، فصار فخرها، وزينة تراثها، وتلك صفة القرآن"[1].

وليس يخفى، أن أمين الخولي استثمر هو أيضاً جهود من سبقوه، خاصة تراث الشيخ محمد عبده (ت1905م)، الذي كان تأثيره عليه واضحاً، مستلهماً منهجه الأدبي، وكان أول من دعا إلى التجديد في علم التفسير.

وعلى الرغم من أن الخولي لا يشير إلى مصادره الأخرى غير العربية "فمن المحتمل أنه قد اطلع على بعض أعمال هيردر وفلهاوزن وشلايماخر خاصة كتابه الصغير "التأويل""[2] .ومن اللافت أيضاً أنه تأثر بأعلام المدرسة الألمانية، خصوصاً تيودور نولدكه، صاحب كتاب "تاريخ القرآن". وقد أشار إلى ذلك ملمحاً في كثير من الأحيان بقوله: "وقد جاهر أحد شبابنا من خريجي كلية الآداب فترجم الكتاب (يقصد كتاب تاريخ القرآن) بمعونة من في الكلية من أساتذته الألمان، وعارفي لغتهم، لكن حالت عوائق تافهة دون طبع الكتاب...(..)، وهي دراسات ضرورية لتناول التفسير"[3].

[1] – الخولي، مرجع سابق، ص303.

[2] – حيدر، عبد السلام، أمين الخولي ومنهجه في تفسير القرآن، موقع طواسين على شبكة الإنترنت.

[3] – الخولي، مرجع سابق، ص209.

ثانيا: المدخلُ البلاغيّ فِي بيان الإعْجَاز القُرْآنِيّ

لقد بذلت عائشة عبد الرحمن، من خلال كتابها "الإعجاز البياني للقرآن" جهداً مضنياً في تتبع رحلة الدراسات الإعجازية والبيانية جيلاً بعد جيل، بدءاً من علماء القرن الهجري الثاني، ووقوفاً عند مصطفى صادق الرافعي ومدرسة الإمام محمد عبده وأمين الخولي.

حيث بسطت جهود العلماء المتقدمين والمتأخرين منهم، وانتهت إلى أن "هذا الإجماع على إعجاز البيان القرآني، هو الذي نقل القضية إلى الميدان البلاغي على وجه التخصيص، إلى جانب ما يعرض له المفسرون، وبخاصة البلاغيون منهم، من ملاحظ بلاغية في سياق تفسيرهم لآيات الكتاب المحكم"[1]، وهو ما قادها إلى إفراد مبحث موسع عن البلاغيين وعلم الإعجـاز.

فعلى الرغم من الطبيعة الكلامية لمبحث الإعجاز، إلا أنه ظل مشغلة البلاغة. ومن هنا كان رد العلماء قوياً على كل من استهان بها علماء درس الإعجاز، ومنه ما جاء في نص عبد القاهر الجرجاني: "وليت شعري، إن كانت هذه أمور هينة، وكان المدى فيها قريباً والجدى يسيراً، من أين كان نظم أشرف من نظم؟ وبم عظم التفاوت واشتد التباين، وترقى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة؟ أو هنا أمور أخرى نحيل في المزية عليها ونجعل الإعجاز كان بها"[2].

واضح أن هذا النص يبين أهمية البلاغة، والوظيفة المنوطة بها، وهو أمر عني به كل علماء السلف، ومنهم أبو هلال العسكري الذي جعل البلاغة "أحق العلوم بالتعلم لأنها أداة لمعرفة إعجاز القرآن"[3].

على أن العلماء تناولوا درس الإعجاز والبحث في شروط الكلام البليغ، بمفاهيم كثيرة منهم من ردها للبلاغة، ومنهم من نسبها للفصاحة وآخرون استعملوا مصطلح البيان، على أن الفروق ستتضح اتضاحاً بيناً من خلال تناولهم لإشكالية اللفظ والمعنى، وضبط العلاقة بينهما. إذ كان لهذه القضية أثر كبير في تناول علم الإعجاز، من جهة المنزع المذهبي الذي جعل العلماء فِرقاً، منهم من انتصر للمعنى، ومنهم من دافع عن اللفظ. وراح كل فريق يتلمس وجه الإعجاز في الشكل الذي يخدم مذهبه، ويغلب رأيه من خلال المفاهيم والمصطلحات التي تعينه على تجلية رؤيته وفكره.

---

[1] – عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، مرجع سابق، ص100.

[2] – الجرجاني، عبد القاهر (1983): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص109–110.

[3] – العسكري، أبو هلال (1972): الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي، ص7.

ويعتبر الجاحظ من أهم أعلام فنون القول، وأول من مهد الطريق وجعله سالكاً لمن جاء بعده. وإذا كانت نظريته البيانية مبثوثة في كتبه الرائدة، فإنه من أسف أن اجتهاداته في النظم القرآني لم تنج من الضياع، ولم يصلنا منها إلا بعض شتات أقوال متفرقة بين كتبه كما يشير على ذلك: "ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بهما فصلا ما بين الإعجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات"[1].

أما القاضي عبد الجبار (ت415هـ) فقد أولى عنايته للفصاحة وانتصر للفظ من دون إغفال أثر المعنى، يقول: "موضوع علم البيان هو علم الفصاحة والبلاغة، ولهذا فإن الماهر فيه يسأل عن أحوالهما وحقائقهما اللفظية والمعنوية، فيحصل له من النظر في الألفاظ المفردة إدراك الفصاحة، ويحصل له من النظر في المعاني المركبة أحوال البلاغة"[2].

وبذلك اعتبر الفصاحة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، وهو إن أقر بفصاحة الكلمة، فإنه اعتبر أن اللفظ لا يكتسب قيمته إلا بالضم على طريق مخصوصة داخل السياق والتركيب، وهذا ما يجعل بلاغة القرآن عالية، ومخالفة لما جرت به عادة العرب في كلامها.

أما الخطابي (ت388هـ) فقد جعل الفصاحة رديفة البلاغة، وارتضى الإعجاز من وجهين: أما الأول فهو كون القرآن معجزاً بالبلاغة والفصاحة ،يقول: "اللفظ في مكانه إذا أبدل فسُدَ معناه أو ضاع الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة"[3]، والوجه الثاني كونه معجزاً من جهة النظم مع مراعاة اللفظ والمعنى، و"هو وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل فسد المعنى أو ضاع الرونق"[4].

ولن يتحدد مفهوم الفصاحة إلا مع ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة" الذي يرى "أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً"[5].

[1] – الجاحظ، أبو عثمان (1956): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، 86/3.

[2] عبد الجبار، القاضي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تقويم: أمين الخولي، القاهرة: وزارة الثقافة، 16/1.

[3] – الخطابي، أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ص29.

[4] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] ابن سنان (1983): سر الفصاحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ص49–50.

ويذهب الرماني (ت386هـ) إلى أن إعجاز القرآن لا يتحقق إلا في بيانه، والبيان في تقديره هو "ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد"[1].

كما أنه جعل البلاغة عشرة أقسام "الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[2].

أما الباقلاني (ت403هـ) فقد جعل للبيان مراتب، أعلاها منزلة القرآن الكريم، ولذلك رفض أن تكون البلاغة منهجاً للكشف عن جماليات الأسلوب القرآني "فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه: ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان"[3].

ويأتي عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ليؤكد أن الإعجاز البياني لا يتحقق إلا بالنظم المرتبط بمعاني النحو، ولم يقصر الفصاحة على تلك الجزئيات اللغوية، وإنما بحث في الخصائص البلاغية للكلام. كما استبعد الألفاظ المفردة من ساحة البلاغة، ذلك لأن صفة البلاغة والفصاحة لا تنعت بها اللفظة، وإنما ينعت بها التركيب والنظم والمعنى. ولا مزية للفظة المفردة عنده إلا بعدما تجد مكانها في التركيب "ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك، فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع، وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ بأنه فصيح، مزية تحدث بعد ألا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم"[4]، وهو مما آخذت عليه عائشة عبد الرحمن صاحبَ الدلائل، لأنه تلمس أسرار البلاغة في الشعر، وأنه قدم "ملاحظة دقيقة مما لمحه من أسرار البلاغة العربية، ولم يقدم دراسة قرآنية للإعجاز البلاغي، ولعلها تجلو براعة العرب واقتدارهم على فن القول، لكن دون أن تتصل بإعجاز القرآن إلا على وجه التوطئة والوسيلة والتمهيد"[5].

وإذا كانت بنت الشاطئ قد ردت أيضاً الكثير من آراء الباقلاني، واعترضت على كثرة حضور الشاهد الشعري في كتابه، مكان الشاهد القرآني، فإنها على العكس من ذلك وجدت وجوهاً من الالتقاء

[1] الرماني، أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله وزغلول سلام، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، القاهرة: دار المعارف، ص98.

[2] المرجع السابق، ص76.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط5، القاهرة: دار المعارف، ص-ص 277-276.

[4] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص401.

[5] عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، مرجع سابق، ص124.

مع نظرية الخطابي الإعجازية، فعدّته رائداً في ربط فكرة الإعجاز بقضايا علم الجمال، ودراسة النص القرآني في مستوياته اللغوية والتعبيرية وقدراته الإيحائية، وشحناته النفسية، وهو القائل: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم"[1]، فضلاً عن أنه أضاف وجهاً آخر من وجوه الإعجاز، هو البيان النفسي الذي ينجم من أثر وتأثير القرآن الكريم في النفوس والأرواح، وقد أشارت بنت الشاطئ، إلى أن هذا الملمح هو الذي أدار عليه عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم.

ومجمل القول في هذا الشأن إن الدرس البلاغي اتصل بالإعجاز من جهة عنايته بخصائص لغة القرآن، ولئن ذهبت بنت الشاطئ إلى القول: "وأيا ما قالوا في وجوه الإعجاز، فالذي لا ريب فيه هو أن إعجازه البلاغي لم يكن قط موضع جدل أو خلاف"[2]، فإن البلاغي محمد العمري يذهب إلى عكس ذلك حيث يقول: "يبدو من المجازفة القول بأن سؤال الهوية البلاغية في مرحلة وضوحه قد ارتبط بالسؤال الإعجازي وحده، فالواقع أنه طرح من زوايا نظر أخرى. ومع ذلك فلا جدال في أن الاعتبار الإعجازي كان أهم الحوافز التي دفعت إلى البحث عن جواب للسؤال التالي: ما الذي يجعل الكلام بليغاً ويجعل بعض الكلام أبلغ من بعض؟[3].

بقي أن نشير إلى أن المحاولات التجديدية التي نهض بها أمين الخولي، والتي دعت إلى التجديد في التفسير والنحو والأدب، وتجاوز التصور الكلاسيكي للبلاغة الذي ساد طويلاً، هو مما أضر بالبلاغة نفسها وأزهق روحها. ولذلك طرح فهما أوسع يتعدى خصائص الكلام الأسلوبية المتعلقة بالجملة وأجزائها إلى الاشتغال على النص ككل، واقترح بدء البحث البلاغي من "اللفظة المفردة على أن يشمل الفقرة والعمل الفني الكامل فنبحث فيها الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ومراتبه وأنواعه المختلفة وننظر النظرة الشاكلة الجامعة في الأثر الأدبي كله"[4] وهو ما نهجته بنت الشاطئ في تفسيرها للقرآن الكريم.

ثالثاً: سلطة النظام البياني في الإعجاز القرآني

1- ضوابط منهجيّة:

لقد انطلقت بنت الشاطئ في تفسيرها للقرآن الكريم من تصور منهجي واضح، استند إلى الجهاز الاصطلاحي والنظري، كما صاغه أمين الخولي. وهو منهج إحصائي استقرائي يعمل على

[1] الخطابي، أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام. دار المعارف، ص27.

[2] عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص79.

[3] العمري، محمد (2010): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ط2، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ص185.

[4] الخولي، مرجع سابق، ص267.

استقصاء المادة اللغوية للفظ المراد تفسيره، ثم تلمس الدلالة اللغوية للفظة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية، ثم استقراء كل ما في القرآن من صيغ تلك اللفظة، مبينة سياقها في الآية والسورة ثم سياقها في جميع القرآن، ثم تستدعي بعد ذلك أقوال المفسرين وتقبل منها ما تقبل وترد منها ما لا تقبله، محتكمة إلى القرآن الكريم في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية.

وهو منهج يقوم على أساسين:

1) **الأســاس اللغوي:** فإدراكاً من بنت الشاطئ لأهمية المعجم اللغوي، وما يمنحه من إمكانيات الوقوف على مواطن البيان والبلاغة ومن إغناء للقراءة التفسيرية، فإنها تركز على تأدية معاني الألفاظ من خلال مستوى معجمي يتتبع اللفظة في أصلها في معاجم اللغة، ومستوى دلالي تداولي ينظر في استعمالات المفردات، مفسرة النص بالنص، مع إعطاء أهمية بالغة للسياق والدلالة.

على أن الانطلاق من المفردة والجملة، ثم السورة فالنص القرآني ككل، قصدت من خلاله الاشتغال على إعجاز النص القرآني، في ترابط مبانيه واتساق معانيه، وتجلية المقاصد التي تتعاضد عليها علوم متساندة ومتبادلة التأثير، وهي علم اللغة وعلم النحو وعلم البلاغة. ذلك أن تفسير النص بالنص، وتفسير المفردة المنزلة بنظيرتها هو مظهر من مظاهر الاتساق والانسجام النصي في القرآن الكريم، الذي يجعله كلا واحداً مترابطاً سبكاً وحبكاً.

ومن أمثلة ذلك تتبعها للفظة "الشرح" من سورة الشرح. وعند عرض اللفظة على أصلها اللغوي في المعجم جاءت بمعنى الفسحة والبسط والتوسعة، وهو ما ذهب إليه المفسرون، لكنهم اقتصروا على المعنى المعجمي. واختلفت معهم في الزيادة التي تأولها بعضهم في المعنى، فالطبري يرى شرح الصدر للهدى والإيمان، والزمخشري ذهب إلى أن الصدر قد شرح حتى يسع أعباء النبوة ويحتمل همومها، والنيسابوري قال بشرح حقيقي لا مجازي، أما محمد عبده فرد الشرح إلى إخراج النبي من الحيرة التي قد يضيق بها صدره.

ثم تتبعت لفظة "شرح" في جميع القرآن فاستخرجتها من خمسة مواضع، وعند الوقوف عليها في بعدها التداولي، وقفت على إفادتها لمعان أخرى غير معانيها الأصلية، إذ جاءت في السياق القرآني في سوَر كلها مكية:

- اقتران الشرح بنور الهداية في الآية 125 من سورة الأنعام ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ والآية 22 من سورة ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾.
- اقترانها بمعنى اليسر في الآية 25 من سورة طه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ، والآية 1 من سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

- اقترانها بغفلة الكافرين في الآية 106 من سورة النحل ﴿لَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- اقترانها بضيق الصدر وحرجه في الآية 125 من سورة الأنعام ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾، وبقسوة القلب والضلال المبين في الآية 22 من سورة الزمر ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وخلصت بنت الشاطئ أن شرح الصدر لم يكن مرتبطاً بالنبي (ص) في جميع السياقات، وأن الشرح متعلق بالصدر، وأنه مثلما يشرح الصدر للهداية يشرح للكفر كما في سياق الوعيد. وبذلك يكون ما وقف عنده النيسابوري من شقّ مادي لصدر النبي، مما لا يستقيم مع السياقات المذكورة في القرآن، وبالتالي فهو قول مردود.

ومما وقفت عليه كذلك من سورة الضحى ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أن المفسرين أجمعوا أن سبب النزول هو إبطاء الوحي، ثم عرضت إلى التفاسير التي قدمها العلماء من خلال محمد عبده إلى أن "الضحى" هو ضوء في شباب النهار. كما اعتبروا الليل لباساً وسكناً، وجاء عند بعضهم بمعاني الوحشة، وتأولوا الليل بسكون الموت، ثم عقدوا نوعاً من العلاقات الاستعارية بين الألفاظ والمعاني، وهي حسب بنت الشاطئ لا تستقيم، وأنه في تأول المعاني يجب الاحتكام للنص القرآني، واستقصاء مواضع ورود مفردة "الضحى" في جميع القرآن، فاستقصت اللفظة في المواضع التالية:

- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46].
- ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 27].
- ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ التي جاءت ظرف زمان في الآية 98 من سورة الأعراف.
- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: 59].

وخلصت بعد تطبيقها الاستقرائي أن لفظة الضحى تفيد دلالة الوضوح في كل الاستعمالات الحسية للمادة: فالضاحية السماء، وقيل لما ظهر وبدا ضاحية، وضحا الطريق إذا بدا وظهر. فالضحى في آية النازعات مقابل للعشية، وفي الأعراف جاءت ظرف زمان لوقت من أوقات النهار، وهو مما يجعل القول بالضحى جميع النهار تأول لا يستقيم.

2) **الأساس الموضوعي**: والمراد به فهم النص القرآني من خلال تفسيره موضوعاً، موضوعاً، وتجنيبه النظرة التجزيئية، بتفسيره سورة، سورة. حيث يعنى التفسير الموضوعي بوحدة الموضوع وبقضية علم المناسبة أو التناسب الذي يحمل الدلالة على الترابط القائم بين الأجزاء والعناصر، التي يتألف منها المقطع من الكلام أو السورة، وعدم حصر بلاغته في آياته، بل في تناسب

معانيه ومبانيه وألفاظه، وهو كما تقول: "والأصل في منهج هذا التفسير – كما تلقيته عن أستاذي – هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن منه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك (...) وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة، سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه متقطعاً من سياقه العام في القرآن كله، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية"[1].

ومن تأملاتها في هذا الموضوع ما ألفته من تناسب موضوعي بين سورتي الشرح والضحى، الجامع بينها تعداد نعم الله تعالى على نبيه الكريم، وما خصّه به من عناية ربانية، موافقة في ذلك محمد عبده، وقد كان النيسابوري قد خالفه في ذلك بعلة أن صيغة الاستفهام في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ جاءت بصيغة الغيبة ،في حين وردت في سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بصيغة المفرد.

ويتأسس منهج عائشة عبد الرحمن على دراسة النص القرآني من جانبين:

- فهم ما حول النص: اختيار ترتيب الآيات حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، والاستئناس في ذلك بالمرويات، التي تأخذ بها من غير ترجيح، من حيث هي قرائن معينة على الإحاطة بالمعنى. وهذا هو جوهر التجديد عند أمين الخولي الذي يبدأ بالمفردة القرآنية وينتهي بالإحاطة "بالظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل حضارة الأمة وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ،فإن من الخطأ المبين أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ النص القرآني الأدبي الجليل فهماً لا يقوم على التقدير لهذا التدرج، والتغير الذي مس الألفاظ ودلالاتها"[2].
- دراسة في فهم النص: وهو فهم منصب على وحدة الموضوع وتناسب الآيات والسور، والنظر في دلالات ألفاظه، والنظام العلائقي الترابطي الذي يؤكد على النظام البياني الشامل في القرآن الكريم. يقول ستيفن أولمان "إن السياق ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات والعناصر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن"[3].

[1] – عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص 18.

[2] الخولي، مناهج تجديد، مرجع سابق، ص312.

[3] أولمان، ستيفن (د.ت): دور الكلمة في اللغة، تر :كمال محمد بشر، مكابة الشباب، د.ط، ص.57

2- البيــان والقـرآن:

"أبين الكلام كلام الله"[1]، هكذا قال الجاحظ، لذلك تجد الإحساس العالي بالبيان القرآني الذي استوطن الأرواح وشغل العقول، وحير الإنس والجن، هو مما أودعه الله تعالى من أسرار في فطرة النفوس البشرية، وغير البشرية. ولقد ظل هذا الإحساس حافزًا يحفز العلماء على النهوض بعبء كبير بالشكل الذي جعل جهودهم كلها تصب في بحر القرآن وفي نهر إعجازه، من خلال تتبع أساليب القرآن الكريم والغوص في معانيه، والبحث في تراكيبه والعناية بدقائق لغته، وتصاريف ألفاظه، وعجائب نظمه وحسن سبكه، وجمال لفظه، ثم تلمس وجوه الإعجاز وتحري مواضعه. وقد ارتبط البيان بالإعجاز حتى أنك لا تجد نظيراً لهذا المصطلح في اللغات الأخرى، يقول الجابري: "البيان كفعل معرفي هو الظهور والإظهار والفهم والإفهام، وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربية الإسلامية "الخالصة"علوم اللغة وعلوم الدين. وترتكز الممارسة النظرية داخله على وضع قوانين لتفسير الخطاب المبين، الخطاب القرآني أساساً"[2].

وتبعاً لذلك، أضحى البيان منهجاً في فهم القرآن الكريم وإدراك معانيه، وتدقيق النظر والتدبر في آياته، ومتى افتقد الدارس بوصلة البيان، قصر نظره عن إدراك كنه أسرار القرآن الكريم، فراح يتكلف التأويلات ويذهب فيها كل مذهب. ومن ثم كان "البيان بصرٌ والعيُّ عمى"[3]، لأن البيان جهد ينطوي على نشاط فكري تحشد له الطاقات التعبيرية، والملكات الفنية، والقدرات اللغوية والمعرفية والثقافية والنفسية، حتى يكون صاحبه قادراً على الإبانة، وتبليغ المراد وتحقيق الإقناع والإمتاع، ولذلك وسع الجاحظ دائرة اشتغال البيان، وجعله شاملاً ومحورياً وجامعاً لكل شيء.

والله تعالى عندما نعت كتابه بأنه بيان للناس، فقد خصه بأسرار البيان المعجز التي تطال النبرة والحركة والحرف واللفظة والآية والسورة والنظم الجامع، فتعددت بذلك أوجه تأويله والنظر فيه.

ولقد أفردت بنت الشاطئ في كتابها مبحثاً عنوانه: "محاولــة في فهم الإعجــاز البياني" (من ص142 إلى ص-280)، أثارت فيه جملة من القضايا البيانية واللغوية التي وقف عليها فهمها للقرآن وفق منهجها البياني الاستقرائي، منها فواتح السور والزيادة والحذف والإلغاء والتناوب والترادف والسجع والفواصل وغيرها. لتدل على أن القرآن الكريم معجز في نظمه وحرفه ومفردته وآيته وسورته.

[1] الجاحظ، أبو عثمان (1998): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 273/1.

[2] الجابري، محمد عابد (1982): بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط1، بيروت، ص556.

[3] الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، 77/1.

الإعجاز الحرفي فواتح السور وبيان حروف المعاني: اهتمت بنت الشاطئ بضبط ورود فواتح السور القرآنية، كما عملت على استقرائها في القرآن الكريم، فتناولتها على حسب ترتيب نزولها، لتجد أن هذه الحروف المقطعة، لها بعد حجاجي يظهر من خلال ارتباطها بالوحي، واستنباط معانيها من السياق الذي وردت فيه والمتصل بالمراحل الأولى من الدعوة الإسلامية، حيث يظهر أنها جاءت مؤيدة لنبوة المصطفى، ومعجزة للمشككين. وكانت سورة القلم من أول السور التي افتتحت بها متمثلة في حرف (ن) "ومجيء الحرف (ن) في سورة القلم المكية المبكرة، فيه لفت واضح إلى سر الحرف في البيان المعجز، لما في السورة من جدل من المشركين في نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام وجحد لمعجزته، فكان هذا تمهيداً للمعاجزة التي تتحداهم أن يأتوا بمثله، على أن ورود هذه الحروف المقطعة توالى في وقت اشتدّ فيه إنكار وجحود المشركين، وكان لابد من كسر شوكتهم والزيادة من وقع التحدي والمعاجزة. "وهي محاولة لا أعلم أن أحداً ممن قرأت لهم قد اتجه إليها"[1].

وقد أوردت آراء مختلف المفسرين، وأغلبهم اعتبرها حروفاً للتنبيه، غير أن بنت الشاطئ اهتدت إلى أن نزول بعض سور القرآن الكريم مفتتحة بالحروف المقطعة، له صلة بسياق أسباب النزول، وفي مرحلة معينة من الدعوة الإسلامية، تميزت بالرد على المجادلين، وإلجام صوت جحودهم بالتحدي الصريح مثلما نجد في (سورة ق، سورة ص، الأعراف، المص، يس، مريم، كهيعص، طه، الشعراء، النمل، القصص سورة " القصص") حيث جاءت هذه الحروف منفردة. وبعد ذلك نزلت سورة الإسراء (الإسراء، يونس، هود، يوسف) وتمت الزيادة في الحروف المقطعة، زيادة تتناسب وشدة الجدل والمعارضة، إلى أن جاء الحسم النهائي والتحدي المعجز والحاسم، وذلك مع نزول فواتح السور بسورة البقرة (ألم) وهي التي قطعت بإطلاق بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

وفي بيان سر الحرف القرآني تطرقت عائشة عبد الرحمن إلى أسرار حروف المعاني مثل (الباء الداخلة على خبر ليس، وخبر ما العاملة عمل ليس) **(قل لست عليكم بوكيل)** (الأنعام، 66) **(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً)** [آل عمران: 67] التي اعتبرها بعض العلماء زائدة من حيث الإعراب ومن حيث المعنى، وأن وظيفتها جمالية فقط آخذين في ذلك بمذهب النحاة، لكنها حروف لا يسد مسدّها شيء في المعنى، لأنه "ما من حرف في القرآن الكريم تأولوه زائداً، أو قدروه محذوفاً، أو فسروه بحرف آخر، إلا يتحدى بسره البياني كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به البيان القرآني المعجز"[2].

وبذلك تقر بنت الشاطئ أن لا زوائد في القرآن، وإنما تأتي حروف المعاني لإشباع المعنى وتأدية المقاصد، سواء منها المفردة أو المركبة. فإذا ما أضيفت أفادت معنى الإبلاغ بمعنى خفي،

[1] عبد الرحمن، الإعجاز البياني، مرجع سابق، ص160.
[2] المرجع السابق، ص125.

ومتى حذفت أفادت معنى الاستغناء عنها والاكتفاء بغيرها في ذاك الموضع. وضربت لذلك بمجموعة من الأمثلة، ثم عضدت ذلك بالقول: "ما أعجب أن تتحقق آيات الإنسان الناطق بحروف صماء، قد تتآلف منها أصوات عجماء لا تبين ولا تنطق، ومنها تصاغ الكلمات فيحقق بها الإنسان آية نطقه وبيانه"[1].

الإعجاز اللفظي: المفردة القرآنيــة في مرايا البيان القرآني:

إذا ما تركنا الحرف القرآني، والتفتنا إلى اللفظة القرآنية، سنجد أن من خصائصها صفة الاتساع الدلالي التي تقتضي عدم استبدالها بغيرها، لأنها لا ترد في السياق إلا ضمن نسق بديع من النظم والتركيب، ومثلما ترد اللمسة البيانية في الحرف ترد أيضاً في المفردة القرآنية. ذلك لأن القرآن "حين يهدي إلى سر الكلمة لا تقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ القول بترادفها"[2].

إن اللفظة القرآنية، بهذا المعنى، لا تسد مسد صاحبتها، كما لا ترد في السياق إلا على سبيل السر البياني المعجز، لِما يدل عليه المعنى الذي تحمله، وفي ذلك قال الجاحظ: "وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام"[3].

ومن هنا يتبين عدم قول بنت الشاطئ بالترادف، وأن لكل لفظ دلالته الخاصة التي تطلق عليه دون أن تتعداه إلى غيره، وتتفق في ذلك مع أبي منصور الثعالبي في كتاب (فقه اللغة) ومع أبي هلال العسكري في كتاب (الفروق اللغوية)، أما من قال بالترادف فهو ابن السكيت 244هـ في كتاب (الألفاظ) والفيروز آبادي في القاموس، وكذا الإمام الفخر الرازي والتاج السبكي، والإمام السيوطي).

ولقد مثلت لذلك بمجموعة من الألفاظ منها (الرؤيا والحلم – آنس وأبصر– النأي والبعد – حلف وأقسم – التصدع والتحطم – الخشوع والخشية – والخضوع والخوف – زوج وامرأة – الإنس والإنسان – النعمة والنعيم) مع استقراء جميع مواضعها والتفصيل في معانيها. ونقتصر على تناول بعضها.

مثال :الحلم/والرؤيا: وهما لفظان لا يترادفان، حيث جاءت الأحلام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم بصيغة الجمع وكلها ارتبطت بالهواجس والأضغاث، في حين وردت الرؤيا في سبعة مواضع بصيغة المفرد دلالة على التميز والوضوح والصفاء، مثلما نجد في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي

[1] المرجع نفسه، ص166–167.

[2] عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن الكريم، مرجع سابق، ص209.

[3] الجاحظ (1998): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 20/1.

﴿فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِين﴾ فكانت الرؤيا صادقة وليست كما بدت لهم مجرد هواجس.

مثال: أما بالنسبة للفظتي: حلف/أقسم: فعلى الرغم من أن كتب المعاجم ترى أنهما لفظان مترادفان، ويفسر أحدهما بالآخر إلا أن استقراءهما في القرآن الكريم يؤكد غير ذلك، فالعرب تقول حلفة فاجر وأحلوفة كاذبة[1]. وأوردت بنت الشاطئ شعراً للنابغة الذبياني وآخر للأعشى يبتدئ بكلمة "حلفت فلم أترك لنفسك ريبة" وعلقت على أن الحلف في الشعر لا يأتي إلا على سبيل الشك، والضرورة الشعرية.

ثم عرضت للفظة حلف وسياقات ورودها في النص القرآني، وجاءت هذه المفردة في ثلاثة عشر موضعاً في القرآن اقترنت جميعها بالشك والاحتمال وعدم اليقين المرتبط بالحنث والكذب في جميع أحوال ورودها "**ولا تطع كل حلّاف مهين**"(القلم: 10)، "**ويحلفون بالله ليرضوكم**" (التوبة: 62).

أما لفظة "أقسم" كما تفسرها المعاجم "والقسم العطاء والرأي وأن يقع الشيء فتظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة وهو أقرب إلى الحق"، فهو لفظ مقترن بالعظمة. ويأتي في الأيمان الصادقة، "وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" (الواقعة: 76)، "هل في ذلك قسم لذي حجر" (الفجر: 5).

الإعجاز الأسلوبي: تتنوع أساليب القرآن الكريم وتتعدد، وهي لا تأتي إلا لغاية ومقصد، ولذلك وجب تبين المعنى المضمر وراءها، وتحصيل المراد منها بضرب من التأويل السليم والفهم الصحيح من غير غلو ولا تأول. ولقد أوردت بنت الشاطئ مجموعة من الظواهر الأسلوبية اللافتة في البيان القرآني التي تبين مواطن إعجازه، والتي تكشف الطاقات التعبيرية الكامنة في لغة القرآن، وقد تولت مسؤولية الكشف عن أسرارها البلاغية وملاحظها البيانية ومنها:

1) **أسلوب الاستغناء عن الفاعل، والفعل المبني للمجهول:** من خلال استقصاء بنت الشاطئ للفعل المبني للمجهول في الآيات التي وقفت عندها في: (إذا زُلْزِلَت الأرْضُ زِلْزَالَهَا) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)، (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا" "وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى"، وجدت أن المفسرين ذهبوا في تفسير الاستغناء عن الفاعل مذاهب شتى، مع تغليب الصنعة البلاغية، دون الالتفات إلى الغاية والمقصد البياني من وراء ذلك، وهو التركيز على الحدث دون البحث عن محدثه، حتى إن كل شيء يقع عن طواعية وبتسخير تلقائي.

[1] الزمخشري، جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون الأسد، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ص208.

ويمنحنا الاشتغال على هذه الآيات، صورة تقريبية عن هذا الاختيار الأسلوبي لاستغناء عن الفاعل لتركيز الاهتمام على أهوال يوم القيامة، وما يرافق ذلك من بعد نفسي مشحون بانفعالات ومشاعر متضاربة، و"إذا كان كل استدعاء للمعنى يستلزم شعورا"[1] بتعبير إيزر، فإن المشاعر التي استدعتها مثل (الزلزلة التكوير والنفخ والدك والرج)، تعبر عن تقلب في نظام الكون يدفع الإنسان إلى التساؤل (وقال الإنسَانُ مَالَهَا) لأن الفعل استدعى شعور الخوف والرهبة والترقب "والإنسان هنا هو الإنسان على الإطلاق"[2] أو المخاطب الكوني بتعبير شاييم بيرلمان، وليس الإنسان الكافر الذي لا يؤمن بيوم القيامة كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين.

والمقصد هو أن الكون كله أصبح مهيأ للقيامة دون الحاجة إلى أمر فاعل، ولذلك يكون الفعل المبني للمجهول هو فعل حجاجي لأن الإنسان يومئذ يجهل مصيره ومآله، مدعوماً بظاهرة أسلوبية أخرى هي التكرار في مقام القصر إمعاناً في الترسيخ والتقرير والإقناع.

والملاحظ أنه سيتم الانتقال إلى الفعل المبني للمعلوم في آية (وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) فقد جعل الله تعالى هنا الأرض فاعلة، وهي جماد تركيزاً للاهتمام بالحدث، وكون الأرض مسخرة بشكل تلقائي لهذا الفعل.

2) **أسلوب القسم بالواو**: القسم يأتي في القرآن الكريم على سبيل التعظيم، تعظيم المقسم به الذي هو الذات الإلهية أو القسم بمخلوقاته، تعظيماً له أيضاً، وهو غير الحلف لأن الحلف مقترن بالحنث بينما القسم مقترن بالتصديق والإيمان، كما تمت الإشارة إلى ذلك. وللقسم دور تساندي باعتباره يشكل ملمح جذب واستقطاب وإقناع وحسم، وبالتالي فهو أسلوب لا يرد في القرآن إلا لغايات ومقاصد مخصوصة.

وواو القسم التي استهلت بها أغلب السور القصار المكية (والضحى – والنازعات – والتين والزيتون – والعصر – الخ) اختلف المفسرون في تفسير ورودها، وأغلبهم ذهب إلى كونها لفت وتنبيه على سبيل الإعظام. إلا أن تعليل بنت الشاطئ لذلك يدخل في باب خروج أسلوب القسم من معناه الحقيقي المباشر، إلى الدلالة على فعل إنجازي، مثلما أشارت إلى ذلك. ونستدل على ذلك من سورة الضحى. فأغلب المفسرين ذهبوا إلى أن واو القسم جاءت على سبيل تعظيم المقسم به، والمقسم به في هذا السياق هي مخلوقات الله التي هي من أعظم آياته، لكنهم خلطوا الإعظام والحكمة في خلق المقسم به، فالتمسوا هذه العظمة في المخلوقات، فمحمد عبده يرى أن القسم بالضحى تعظيم للضياء، لأنه آية من آيات الله الكبرى، وأن القسم بالليل فيه انقباض وسكون بالليل، وبذلك يكون قد أغفل

[1] إيزر، فولفغانغ (2010): فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، نقلا عن عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات والتواصل، ط1، تاريخ: مطبعة المعارف الجديدة، ص76.

[2] – عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني، مرجع سابق، ج1، ص.86

التقييد الذي بعده ﴿إذا سجى﴾. والمعنى الذي استقرت عليه المفسرة هو أن القسم هنا لم يرد على سبيل تعظيم الضياء، وإنما لملحظ بلاغي مخصوص، ذلك أن واو القسم في هذا الأسلوب لفت إلى حسيات مدركة، ليست موضع جدل وهي توطئة لبيان غيبيات لا تدرك إلا بالعقل، وأن كل ما في السورة يحيل إلى واقع حسي (والصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس وإذا يغشى، وإذا أدبر) في تقابل بين الهدى والضلال.

3) **أسلوب نفي القسم:** يوظف القسم لما له من تعظيم طرداً للشك، ولطاقته التأثيرية في تقوية الكلام والاقتصاد في الحجة، لكن عندما يقترن بلا النافية كما في (لا أقسم بيوم القيامة، لا أقسم بمواقع النجوم، لا أقسم بالخنس الجوار الكنس) فقد تأوله بعض المفسرين أنه تأكيد للقسم بنقيضه وهو النفي، أو كأنه في حدوثه لا يحتاج إلى قسم. والبعض رأى أنه تعظيم للمقسم به وأن الله لا يحتاج إلى قسم لأنه عظيم في نفسه، وهو مما ذهب إليه محمد عبده. لكن الملحظ الذي استنتجته بنت الشاطئ بعد استقرائها لمواضع الاستعمال القرآني لأسلوب نفي القسم، هو أنه لا يرد إلا حين يكون الفعل مسنداً إلى الله تعالى، وأن أسلوب القسم لم يأت في القرآن كله مسنداً إلى الله تعالى إلا مع "لا". مما يعني أنه ليس في حاجة إلى قسم، وأن نفي القسم تأكيد له. ومثلت لذلك بالقول المألوف "لا أوصيك على فلان" وكذا قولنا "بغير يمين".

4) **أسلوب الحذف:** ثم تطرقت بعد ذلك إلى قضية الحذف التي تناولها النحاة واللغويون، وهي تعني السلب مثلما نجد في (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف) – (يبين الله لكم أن تضلوا) (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) بعد استعراض آراء اللغويين والنحاة تقول متى حذف الحرف فإن السياق مستغن عنه. فالقرآن مقاصد لو وضع الحرف في موضع أنسب له لو وضع في موضع سواه، لأن الألفاظ لا تُكْره على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها بتعبير بشر بن المعتمر.

5) **الأسلوب المسجوع والفواصل:** من وجوه بلاغة الخطاب قوة المعنى وجزالة اللفظ وحسنه، ورغم الخاصية الجمالية لأسلوب السجع ورعاية الفواصل، فله حمولة دلالية تلاحق المعنى لكي تجليه، لأن الألفاظ تتبع لمعانيها. وكشفت بنت الشاطئ عن خصوصية توظيف السجع بإبراز الدلالات المباشرة والمضمرة، ونهض تبريرها على أساس كون الفاصلة في القرآن الكريم تابعة للمعنى وتأتي بحسب ما يتطلبه المقام، إلا أن هناك من رد هذا القول بكون القرآن الكريم معجز بمعناه. وأن الفاصلة تقوم بإغناء المعنى وإبلاغ معان مقصودة، وتقول في هذا الشأن: "البلاغة من حيث هي فن القول، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ

عن التعبير البليغ عنها. كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي"[1].

نستنتج مما سبق بيانه، أن بنت الشاطئ أولت اهتماماً لافتاً لمكون البيان لقدرته على فك معميات النصوص، وكشف المعاني المضمرة، كما أولت اهتماماً للبعد اللغوي والتداولي للفظ، مع تأكيدها على عنصر السياق والمقام وأسباب النزول، والعلاقة التفاعلية بين النص القرآني ومقاصده في إطار مكون البيان الذي هو أساس التركيب اللغوي الجامع للنص القرآني.

الخاتمة:

حاولت هذا الدراسة الاقتراب من المنهج البياني في تفسير عائشة عبد الرحمن، دون ادعاء الإحاطة بكل جوانبه، وإذا كان اعتماد مكون البيان مدخلاً للتفسير هو مما سبقها إليه غيرها من العلماء، فإن أهم ما ميز تفسيرها هو مقاربتها البيانية بأناة وصبر، مؤيّدة بنشاط اللغة وروعتها البيانية في النظم القرآني. لكن على الرغم من الجهود التي بذلتها بنت الشاطئ في تطبيق أصول منهجها البياني، فإنه لا مكان للقول إن إسهامها كان الأبرز من بين الجهود التفسيرية التي انفتحت على مكوني اللغة والبيان. لكن بوسعنا أن نقول إن عملها لا يجحد في مجمله، لأنه تغير تفسير النص القرآني في نظمه وتناسب أجزائه دونما تأول أو تعسف. إذ مما لوحظ عليها، جرأتها في نقد علماء السلف، وتفنيد بعض آرائهم وتضعيف الأخرى بنوع من الاعتداد بالذات، وترجيح الرأي الواحد الذي لا يخدم النص القرآني، وكان أشد ما أثارها التعسف الظاهر لألفاظ القرآن الكريم، والتكلف الملون بألوان المذاهب الكلامية والخلفيات الإيديولوجية.

وإذا كان بعض الباحثين يعتقد أن بنت الشاطئ لم تستثمر إلا جزءاً يسيراً من مساحة الاشتغال التي أشار إليها أستاذها أمين الخولي في مناهجه التجديدية، فإن هناك من تلامذته من ذهب أبعد من ذلك، فكان أن لاقى منهج الأمناء انتقاداً كبيراً، وقوبل باعتراض شديد، جرّ على أصحابه بعض المآخذ، ذلك لأنه ألغى مزية تنزيه القرآن، واعتبره نصّاً أدبيّاً، وتجاهل قداسته ومكانته الروحية.

ونورد هنا رأيا للكاتب عباس ارحيلة جلاّه في دراسته المتأنية حول المنهج الأدبي في التفسير، خلص فيها إلى أن أبحاث تلاميذ الخولي، لم ترقَ إلى ما قدمه سيد قطب في "ظلال القرآن" و"التصوير الفني"، إذ بقيت أعمالهم محدودة في شقها التطبيقي، إذ يقول: "حاول الأمناء أن يتميزوا بمنهج في تحليل النصّ القرآنيّ غير أن جهودهم بقيت محدودة، ولم يخل بعضها من ادعاءات وانحرافات، كمن

[1] عبد الرحمن، الإعجاز البياني، مرجع سابق، ص 278.

حاول تطبيق نظرية الرواية التاريخية على القصة القرآنية أو من ادعى أنه اكتشف ما لم تعرفه الأوائل"[1] في إشارة إلى أحمد خلف وعائشة عبد الرحمن.

بعد كل هذا، هل نكتفي بالقول إن بنت الشاطئ سارت بِسَيْر من علّمها، ونهجت نهج مدرسة الأمناء، أم نجنح إلى رأي محمود الطناحي، الذي يجد مباينة شديدة بين المنهج الأدبي في التفسير كما دعا له شيخها أمين الخولي، وبين ما حققته التلميذة بنت الشاطئ، التي لم تكن، كما يرى، إلا أصلاً تفرع عن المدرسة البيانية الأصيلة، وهو نص نورده على طوله حتى نرصد هذه المباينة: " ولا يبقى من حديث الدكتورة بنت الشاطئ إلا أمر شغلني زماناً، ولا زلت في عجب منه إلى يوم الناس هذا: إن بنت الشاطئ لا تفتأ تذكر فضل شيخها وزوجها الأستاذ أمين الخولي، فهو الذي علمها كيف تقرأ، وهو الذي هداها إلى المنهج، إلى أشياء كثيرة تسميها كلما جاء ذكر الشيخ لكني أجد مباينة بين التلميذة وشيخها فيما يتصل بالبيان وطرائق القول". ثم يميز الطناحي خصائص أسلوب كليهما فيرى أن أسلوب بنت الشاطئ: "أسلوب ترى فيه أثر القرآن الذي تلقته صبية من فم أبيها الشيخ الصوفي، ثم هو من بعد ذلك أسلوب عال موصول بالنسب أصحاب البيان، كالجاحظ وأبي حيان ومصطفى الرافعي ومحمود محمد شاكر" بينما يرى أن أسلوب شيخها "حاد صارم، كأنما يستمد صرامته من صرامة المنهج الذي أخذ به نفسه"[2] وهكذا كانت بنت الشاطئ منشدة إلى التراث وإلى روح البيان العربي أكثر من أمين الخولي الذي "كان يريد أن يخرج إلى أفق الأسلوبية"[3].

وعلى هذا الأساس، يرى بعض الدارسين أن ما جاءت به عائشة عبد الرحمن لم يكن تمثلا واضحاً للثورة التجديدية الشاملة في مناهج البلاغة والنحو والتفسير، كما دعا إليها أمين الخولي، وأنها لم تشكل الامتداد القوي للفكرة التي حشد لها تلاميذه، في حين وجدوا في شكري عياد النموذج الأمثل لأنه كان "هو الأقدر على تطبيق المقترحات النظرية، التي اقترحها شيخه الخولي لتطوير نظرية التفسير والإضافة إليها"[4].

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين)، القاهرة، مصر: دار المعارف.
- أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون الأسد، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

[1]– مدونة عباس ارحيلة، مسألة التفسير الأدبي للقرآن في العصر الحديث، أكتوبر. 2015

[2] الطناحي، محمود، مقالة بنت الشاطئ وتحقيق التراث، مجلة العربي.

[3] ناصف، مصطفى (1992): اللغة والبلاغة والميلاد الجديد، دار سعاد الصباح، ص157.

[4] القيام، عمر حسن (1981): أدبية النص القرآني، بحث في نظرية التفسير، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي هرندن.

- أطبيب، الحسين (2010): نظرية النظم في أصولها الكلامية، المطبعة الوراقة الوطنية، ط1، مراكش.
- أولمان، ستيفن (د.ت): دور الكلمة في اللغة، تر. كمال محمد بشر، مكابة الشباب، د.ط.
- إيزر، فولفغانغ (2010): فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، نقلا عن عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات والتواصل، ط1، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- الباقلاني، أبو بكر (2009): إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط5، دار المعارف، القاهرة، بيروت، لبنان ط3.
- التفسير البياني للقرآن الكريم (1962): القاهرة، مصر: دار المعارف، ط7، ج1.
- التفسير البياني للقرآن الكريم (1986): القاهرة، مصر: دار المعارف، ط7، ج2.
- الجابري، محمد عابد (1982): بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط1، بيروت.
- الجاحظ، أبو عثمان (1998): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط7، ج1، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الجرجاني، عبد القاهر (1983): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الحيوان (1956): تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، ج3.
- الخطابي، أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام. ط دار المعارف.
- الخفاجي، ابن سنان (1983): سر الفصاحة، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخولي، أمين (1961): مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط1، دار المعرفة.
- رسائل الجاحظ، حجج النبوة، تحقيق: عبد السلام هارون، ج3، مصر: مكتبة الخانجي.
- الرماني، أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله وزغلول سلام، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، القاهرة: دار المعارف.
- الزمخشري، جار الله، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة.

- شاكر، محمود محمد (1987): من تقديم الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، فصل في إعجاز القرآن، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، سلسلات الحضارة، دمشق، سوريا: دار الفكر المعاصر.
- عبد الرحمن، عائشة (1971): الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ط3، القاهرة، مصر: دار المعارف.
- العسكري، أبو هلال (1972): الصناعتين، تح: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي.
- العمري، محمد (2010): البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ط2، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- القاضي، عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تقويم: أمين الخولي، ج1، مصر: وزارة الثقافة.
- القرآن والتفسير العصري (هذا بلاغ للناس) (د.ت): القاهرة، مصر: دار المعارف، ط3.
- القيام، عمر حسن (1981): أدبية النص القرآني، بحث في نظرية التفسير، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي هرندن، كتاب إلكتروني.
- ناصف، مصطفى (1992): اللغة والبلاغة والميلاد الجديد، دار سعاد الصباح.